المنظومة
ALMANDUMAH

العنوان:	موقف فلاسفة الاخلاق المسلمين المتقدمين من الأدب
المصدر:	دراسات أدبية
الناشر:	مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية
المؤلف الرئيسي:	أبو جبين، عطا محمد إسماعيل
المجلد/العدد:	ع 8
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2010
الشهر:	نوفمبر
الصفحات:	97 - 107
رقم MD:	203475
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الفلسفة اليونانية، الفلاسفة المسلمون، الفلسفة الاسلامية، الادب العربي، الادب اليوناني، ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، 384-456 هـ.، الفلسفة الاخلاقية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/203475

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

أبو جبين، عطا محمد إسماعيل. (2010). موقف فلاسفة الاخلاق المسلمين المتقدمين من الأدب.دراسات أدبية، ع 8، 97 - 107. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/203475

إسلوب MLA

أبو جبين، عطا محمد إسماعيل. "موقف فلاسفة الاخلاق المسلمين المتقدمين من الأدب."دراسات أدبيةع 8 (2010): 97 - 107. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/203475

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

موقف فلاسفة الأخلاق المسلمين المتقدمين من الأدب

د/ عطا محمد إسماعيل أبو جبين
المديرية العامة لتطوير المناهج، سلطنة عمان

مقدمة:

من المسلم به أننا لا نستطيع الخوض في هذه المسألة الدقيقة دون التعرض إلى فلاسفة اليونان؛ حيث تسربت تلك الفلسفات إلى علماء المسلمين بعد عصر الانفتاح الزاهر على ثقافات الأمم الأخرى، وبخاصة الفلسفة اليونانية، ولذا سنمر مرورا سريعا على أهم ما تطرق إليه هؤلاء الفلاسفة في مجال الأخلاق تحديدا وكيف كانت نظرتهم إلى الأدب وموقفهم منه في ضوء هذه الفلسفات، ويأتي على رأس هؤلاء الفلاسفة أفلاطون، حيث دعا في جمهوريته إلى أن تكون للشاعر رسالة سامية تحترم الآلهة وتحض على الفضيلة، ويقف موقفا عدائيا من الشعر بعامة، ويشرح التأثير السيئ للشعر وبخاصة شعر المآسي والملاهي، ويكمن موقفه الأخلاقي في رفض هذا النوع من الشعر لمعارضته للأخلاق، ولإظهاره لمواضع الضعف البشري، وانتصار الشر فيها أحيانا على الخير، وذلك لأنه يرى أن الخيال الشعري يروي فينا تجارب الشهوة والغضب والرغبة والألم فيمكنها من النمو بدلا من أن يظمئها ويخليها تجف (صابر، ص 124).

أما الشعر الغنائي فلا يرفضه إذ يشيد بأمجاد الأبطال. وقد تمثلت هذه الفلسفة في الأدب اليوناني أصدق تمثيل وبخاصة في إلياذة هوميروس وحرب طروادة وتصويره للشخصيات الخارقة مثل أخيل، وهكتور... وقد ترجم الشاعر فلسفة أفلاطون في الأدب اليوناني بشكل ينم عن إيمانه بالقوة والمثل العليا.

في حين يرى أرسطو الذي يؤمن إيمانا قويا بأن وظيفة الشعر قد تكون نافعة إلى أقصى غاية. فقد بين في كتاب الأخلاق أن الشرير قد ينتقل بالتأديب إلى الخير، ولكن ليس على الإطلاق، لأنه يرى أن تكرير المواعظ لا بد أن يؤثر في ضروب الناس، فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك إلى الفضيلة بسرعة، ومنهم من يتحرك بإبطاء، ولذا يمكننا القول: "كل خلق يمكن تغييره، ولا شيء يمكن تغييره هو بالطبع. (المصدر السابق، ص54)

ونود الإشارة فقط إلى أنه قد تعرض لهذه القضية بالتفصيل النقاد العرب مثل محمد مندور، ومحمد غنيمي هلال، وروز غريب وغيرهم في العصر الحديث.

وممن تطرق إلى هذا الموضوع في الأدب من فلاسفة اليونان جالينوس الذي يرى أن الناس فيهم من هو خير بالطبع، ومنهم من هو شرير بالطبع، وفيهم من هو متوسط بين هذين. (مسكويه ص: 52).

أما إذا انتقلنا للحديث عن هذه القضية عند العرب فيما يتعلق بتطور الفكر الأخلاقي فعادة ما يبدأ الباحثون بالحديث عن هذا الموضوع ابتداء من القرن الأول الهجري؛ أي بداية العصر الإسلامي، ولا يلتفتون إلى الفترة السابقة لهذا العصر، لأسباب تعود إلى التدوين، وأرى بأن هذه النظرة غير صحيحة، فهم يهملون فترة تاريخية مهمة تطور من خلالها هذا المفهوم وإن لم يكن مدونا، وتستطيع أن تستخرج من النصوص الأدبية وبخاصة الشعر، والأمثال منظومة أخلاقية متكاملة لهذا العصر ثم البناء عليها فيما بعد.

كما أود أن أنوه بأن بعض المفكرين قد فرق بين مفهومين رئيسين، عند حديثهم عن مقومات الفكر الأخلاقي، وهما: الأدب الخلقي، والفكر الخلقي، حيث إن الأدب الخلقي يحتوى على المصنفات التي جمع فيها واضعوها ذخيرة أدبية ذات طابع خلقي، أو حكمي تم اقتباسها من شتى المصادر. ويتمثلون في هذا المجال بالأدب الصغير، والأدب الكبير لابن المقفع.

أما الفكر الخلقي فيضم المصنفات الفلسفية الأخلاقية للمفكرين الإسلاميين وعلى رأسهم ابن مسكويه في مؤلفه "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق "، ويحيى بن عدي في رسالته "تهذيب الأخلاق"، والغزالي وغيرهم من المفكرين والفلاسفة المسلمين واليونان (فخري، 1979، ص: 9- 10).

وفي رأينا أن هذا التقسيم وإن انطبق على الشق الثاني؛ فإنه لا ينطبق على الشق الأول على الإطلاق، ولا يمكن حصر المفاهيم الأخلاقية في كتب خاصة بها، وإن كان ابن المقفع قد ابتدأ بذلك بتأثير من الثقافة الفارسية، إلا أنه على صغر حجم كتابه بقي من الكتب النادرة في مكتبتنا العربية الذي يتميز بهذا الموضوع. ونرى بأن بقية المجاميع الأدبية الإسلامية فيما بعد قد تنوعت لتشمل ما هو أخلاقي وغير أخلاقي، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المعايير الأخلاقية في الأدب نسبية، تسقط كليا هذه النظرة إلى هذا التقسيم.

وإذا ما انتقلنا للحديث عن موقف فلاسفة الأخلاق المسلمين من الأدب فلا بد من الانطلاق مما جاء به الإسلام، وكيف اصطبغت وتفاعلت تلك الفلسفات القديمة في أذهان الفلاسفة المسلمين فأنتجت مزيجا فكريا رائعا وجديدا وأصيلا ومبنيا على أسس ثابتة مكينة، لا مجال فيه للتخمينات والخيال، ولا نريد أن نتحدث عن هذا الجانب حيث يذهب بنا بعيدا عما نهدف إليه من هذا البحث، وغني عن القول إن مسيرة الفكر الأخلاقي عند علماء المسلمين انطلقت مما جاء به

القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف اللذين رسما الإطار العام للحياة الدينية، والدنيوية الصالحة، والقواعد العملية التي ينبغي أن ترتكز عليها وكانت القيم الأخلاقية التي رسخها الإسلام هي الحكم والفيصل، وكان الرسول ﷺ قدوة المسلمين حيث وصفه تعالى في كتابه العزيز: "وإنك لعلى خلق عظيم"، وقوله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". والحديث عن القيم الأخلاقية في الإسلام بما جاء به من آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وما تمثله الصحابة والتابعون فيما بعد يستغرق حياة الأمة بأكملها، ولا نستطيع أن نوجزه إلا بكلمة واحدة وهي قوله ﷺ "الدين المعاملة". وكيف تمت معاملة الشعوب الأخرى حتى انصهرت في تلك البوتقة الإسلامية فأبدعت أيما إبداع، فنحن هنا أمام نظام أخلاقي رباني محكم لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه. ولذا سنتحدث باختصار عن أثر تلك القيم في الفكر الفلسفي الإسلامي وفي مواقف هؤلاء الفلاسفة الأخلاقيين من الأدب العربي.

ابن المقفع:

وهنا لا بد لنا من الحديث عن المفكر العربي الإسلامي عبد الله بن المقفع، وحيث يصنف دائما في مجال الأدب إلا أن له جانبا فلسفيا عميقا لا يقل عن الجانب الأدبي، بل أرى بأن الجانب الفلسفي لديه قد أثرى الجانب الأدبي، ولذا تميزت كتاباته بنكهة خاصة وتفردت كتبه في المكتبة العربية بتلك النزعة الفلسفية العميقة، فقد تعرض صراحة في كتابه الأدب الصغير والأدب الكبير لقضية الأخلاق بشكل واضح، واكتسب هذا الكتاب على صغر حجمه منزلة خاصة في المكتبة العربية لتفرده في هذا المجال من ناحية، ولأنه أول كتاب عربي يتطرق إلى هذه القضية مباشرة، وجمع بين الفلسفة والأدب بأسلوب أدبي متين، ولم تتطور هذه الفكرة في التأليف فيما بعد، مما زاد في أهمية هذا الكتاب وتفرده، وعلى الرغم من أنه تطرق إلى كثير من القضايا الأخلاقية ومعالجتها في كتابه كليلة ودمنة، إلا أن هذا الكتاب نص صراحة من خلال عنوانه عما يريد الكاتب وما يهدف منه. حيث يشتمل كتاب الأدب الصغير على جملة من المواعظ والوصايا تهدف إلى الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي والسياسي. يقول في مقدمة كتابه: "وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفا فيها عون على عمارة القلوب وصقالها، وتجلية أبصارها، وإحياء للتفكير، وإقامة للتدبير، ودليل على محامد الأمور، ومكارم الأخلاق إن شاء الله". (ابن المقفع، 1989، ص: 285).

أما كتاب الأدب الكبير فيتحدث فيه عن أمرين: السلطان وشؤون السياسة والحكم، والصداقة وما يدور حولها، وهو يتفق في الهدف مع كتاب الأدب الصغير "ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس". (المصدر السابق، ص: 246). يقول في باب الصديق: "إن سمعت من صاحبك كلاما أو رأيا يعجبك فلا تنتحله تزينا به عند

الناس، واكتف من التزين بأن تجتني الصواب إذا سمعته، وتنسبه إلى صاحبه، واعلم أن انتحالك ذاك مسخطة لصاحبك، وأن فيه مع ذلك عارا، فإذا بلغ بك أن تشير برأي الرجل وتتكلم بكلامه وهو يسمع جمعت مع الظلم قلة الحياء وهذا من سوء الأدب الفاشي في الناس. ومن تمام حسن الخلق والأدب أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك، وتنسب إليه رأيه وكلامه وتزينه مع ذلك ما استطعت.

وفي الحقيقة وعلى الرغم من صغر هذين الكتابين وتفردهما في موضوعهما إلا أنهما يضمان من الكنوز الفكرية والأدبية والأخلاقية مما يجعلنا نقر لصاحبهما بالتميز والإبداع، وقد صدق الخليل عندما وصفه بقوله: علمه أكثر من عقله، مما حدا بابن سلام إلى أن يقول عنه: "لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع". (المعوش، 2004، ص: 20).

الحسن البصري:

وعلى صعيد آخر بدأت تتكون فلسفة ومنطق جديد نتيجة تأثير الفلسفات الأخرى في علماء المسلمين، وبدأ الفكر الأخلاقي يظهر ولأول مرة فكرا موثقا في رسالة الحسن البصري (ت 110هـ) إلى عبد الملك بن مروان بعنوان رسالة في القدر (فخري، 1979، ص: 20).

ومما لا شك فيه أن علماء الكلام أثروا الفكر الفلسفي الأخلاقي في الإسلام، ومع أنهم تعرضوا لقضايا دينية إلا أنهم أثروا الأدب العربي وأثروا فيه تأثيرا كبيرا.

الماوردي: (ت 450).

ومن كبار الفلاسفة المسلمين الذين تعرضوا للأدب الأخلاقي أبو الحسن الماوردي (ت 450 هـ) في كتابه أدب الدنيا والدين، الذي بسط فيه الإطار العام للأخلاق التي تليق بالمؤمن، وخلافا لفلاسفة الأخلاق مثل الرازي ومسكويه فقد مزج الماوردي الجانب الأدبي بالجانب العقلي الفلسفي، ولذا جاء كتابه حافلا بالشعر الخلقي. وتظهر جوانب فلسفته فيما يختاره، وفيما يعلل به بعض الأشعار، فمما جاء في فصل أدب النفس في كتابه السابق:

فمـــا خلـــق اللّه مثـــل العقـــول ولا اكتســـب النـــاس مثـــل الأدب

(فخري، 1979، ص: 73).

كما يورد في باب حسن الخلق أشعارا جميلة، ونحن هنا نركز على الأدب، وبخاصة الشعر حتى يتبين لنا التأثير الأخلاقي في الأدب العربي، ولكن المؤلف يورد الآيات والأحاديث الدالة والأقوال المأثورة، فاقتصرنا على الشعر فقط. يقول: روي عن النبي ﷺ أنه قال: "إن اللّه

تعالى اختار لكم الإسلام دينا، فأكرموه بحسن الخلق والسخاء. فإنه لا يكمل إلا بهما". ثم يورد أشعارا كثيرة في هذا الباب، قال بعض الشعراء:

إذا لم تتسع أخلاق قوم تضيق بهم فسيحات البلاد

ويستشهد بشعر المتنبي عند حديثه عن هذا الجانب، ويربط الجانب الفلسفي بالجانب الأدبي؛ فيقول: وربما تغير حسن الخلق إلى الشراسة والبذاء لأسباب عارضة وأمور طارئة، تجعل اللين خشونة، والوطاء غلظة، والطلاقة عبوسا. ومنها الأمراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الأخلاق على اعتدال، ولا يقدر معها على احتمال. قال المتنبي:

آلة العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرء ولى
وإذا الشيخ قال أف، فما مل حياة، وإنما الضعف ملا

وهكذا يمضي الماوردي قارنا الأدب بما يأتي به من أفكار ومذاهب أخلاقية، ويدل ذلك على غزارة علمه واطلاعه وحفظه، ويظهر أثر ذلك في تمثله لما يستشهد به، ولذا أفضنا في الحديث عنه في هذا المجال، حيث يمثل أصدق تمثيل منهجه الذي اختطه لنفسه في أدب الدين والدنيا، وقد اختار لنا من غرر الشعر العربي في كتابه المذكور، وفي كل باب من أبواب الكتاب يضمن أشعارا تمثل ما يذهب إليه، ومما أورده في باب الحياء بعد حديثه المستفيض عنه قول صالح بن عبد القدوس:

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير في وجه إذا قل ماؤه
حياؤك فاحفظه عليك، وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

(المصدر السابق، ص: 84).

ويورد تحت عنوان الحلم والغضب قول عمرو بن علي:

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن أني عييت عن الجواب، وما عييت

وأنشد النابغة الجعدي بحضرة الرسول ﷺ:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن تكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم، إذا ما أورد الأمر أصدرا

وعند حديثه عن الكذب يستشهد بقول الشاعر:

وما شيء إذا فكرت فيه بأذهب للمروءة والجمال

مـــن الكـــذب الـــذي لا خـــير فيـــه وابعـــد بالبهـــاء مـــن الرجـــال

ثم يمضي على هذه الشاكلة حتى يستكمل الحديث عن كل الفضائل والرذائل المعروفة، وتأتي أهمية هذا الكتاب كما ذكرنا من أنه جمع الفكر الفلسفي الأخلاقي وتحدث عنه حديثا مسهبا، مستشهدا بما يدعم قوله بالآيات والأحاديث والأقوال والقصص والحكايا.

ابن حزم:

أما ابن حزم الظاهري (ت 456 هـ) فقد جمع في كتابه (الأخلاق والسير) كما يذكر في مقدمته: "معاني كثيرة... لكي ينتفع بها القراء في إصلاح ما فسد من أخلاقهم ومداواة علل نفوسهم". ويتعرض فيه إلى ذكر الأخلاق وصفات أصحابها، (ابن حزم، 1961 ص: 12). يقول تحت عنوان (في مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق الذميمة: "لذة العاقل بتمييزه، ولذة العالم بعلمه، ولذة الحكيم بحكمته، ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده أعظم من لذة الآكل بأكله، والشارب بشربه، والواطئ بوطئه، والكاسب بكسبه، واللاعب بلعبه، والآمر بأمره. وبرهان ذلك أن الحكيم والعالم والعاقل والعامل، ومن ذكرنا واجدون لسائر اللذات التي سمينا، كما يجدها المنهمك فيها، ويحسونها كما يحسها المقبل عليها، وقد تركوها وأعرضوا عنها، وآثروا طلب الفضائل عليها. وإنما يحكم في الشيئين من عرفهما، لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر.

وأنا أرى بأن فلسفة الرواقيين تتمثل في حديث ابن حزم هذا أصدق تمثيل، حيث إن من مبادئ فلسفتهم الرئيسة قولهم بأن كل لذة يعقبها ألم إلا اللذة العقلية... وهنا يبدو التأثر واضحا وجليا، ولكن الفارق بينه وبينهم كما نرى أنه أسقط المفاهيم الإسلامية على هذه الفلسفة وبذلك جاءت نظرته أكثر اتزانا وعمقا وصحة.

أما كتابه طوق الحمامة فقد أفاض فيه بالحديث عن العشق وفلسفته الخاصة وأخلاق العشاق وأوضاعهم، ومراتب العشق، وكل ما يتعلق به جامعا الآراء الفلسفية فيه ومستشهدا بحالات العشاق الذين يروي قصصهم الغريبة.

الفخر الرازي، وأبو بكر الرازي، والفارابي:

ومن الفلاسفة المسلمين الذين تطرقوا إلى هذا الجانب فخر الدين الرازي في كتاب النفس والروح، وأبو بكر الرازي في الطب الروحاني، وهما يتميزان بالصبغة الفلسفية المحضة تقريبا، ومنهم أيضا الفارابي الذي ألف أول شرح للفلسفة النيقوماخية، وكان له كبير الأثر على تطور الفكر الأخلاقي وبخاصة عند الغزالي.

يحيى بن عدي:

لقد ارتبط اسم هذا الفيلسوف بالأخلاق فكان تعريفه للأخلاق شاملا لما سبقه ويلخص وجهات نظر كثير من الفلاسفة، حيث يقول: إن الخلق هو حال للنفس، به يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار... والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعا، وفي بعض الناس قد يكون بالرياضة والاجتهاد، وقد يكون في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمد كالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق المحمودة... ويمضي في حديثه عن الأخلاق فيقول: فأما الأخلاق المذمومة فإنها موجودة في كثير من الناس كالبخل والجبن والتشرر، فإن هذه العادات غالبة على أكثر الناس، مالكة لهم، بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه، ولكنهم يتفاضلون في ذلك وكذلك في الأخلاق المحمودة، إلا أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جدا، والمبغضين لها كثيرون". (فخري، 1979: 89)

وهنا يتضح لنا تأثير الفلسفة- والفكر- الأفلاطونية بشكل جلي في نظرة ابن عدي، وكثير من الفلاسفة، قد اتبعوا ذلك حتى في العصر الحديث، ونخص بالذكر منهم الفيلسوف الألماني نيتشه. وكذلك لم يسلم كثير من الشعراء من التأثر بهذه النظرة للأخلاق، ولعل جبران يتمثلها أصدق تمثيل في قصيدته المشهورة المواكب، حيث يقول:

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا

ولا نشك أيضا في تأثير هذه الفلسفة في شعر المتنبي المتمثل في أدب القوة، حيث اطلع على الفلسفة اليونانية بشكل واسع، ومن يقرأ شعر المتنبي يحس بتلك النزعة القوية في شعره، وتوقه للحكم والسيطرة وبأن الحكام ليسوا أهلا لذلك، وتظهر هذه النزعة وهذا التأثير في شطحاته الشعرية وفي حديثه عن نفسه حيث تظهر النزعة الفلسفية الأرسطية والأفلاطونية في شعر المتنبي بشكل ملفت النظر.

ابن مسكويه:

يعد ابن مسكويه إمام الفلاسفة الأخلاقيين في الإسلام، فيرى بأن الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، فمنها ما يكون طبيعيا في أصل المزاج، ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب (مسكويه، ص: 51)، وملخص دستوره الأخلاقي يكمن في التعهد الذي أخذه على نفسه وهو: "آمن في سربه، معافى في جسمه، عنده قوت يومه". (المصدر السابق، ص: 18).

وقد أورد في ثنايا كتابه (تهذيب الأخلاق) بأن الحكماء أجمعوا على أن أجناس الفضائل أربعة: الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدالة. وأضدادها: الجهل، والشر، والجبن، والجور. ثم تحدث حديثا مسهبا عن أنواع هذه الأجناس.

كما يرى بأن الهدف الأسمى من ذلك كله هو الحصول على السعادة وهي الغاية الأخيرة. مستعرضا آراء من سبقه من الفلاسفة، ونرى بأنه أرسى وأسس قواعد علم جديد أفاد منه كل من تحدث عن الأخلاق فيما بعد، مثل كانت وديكارت، وسبق ابن خلدون في الحديث عن كثير من القضايا التي طرحها في المقدمة. ومن خلال اطلاعنا على هذا الكتاب نرى أن ابن خلدون قد أخذ من آرائه ومبادئه الشيء الكثير (على سبيل المثال موضوع التعاون لتحصيل السعادات ص: 37...)

ابن سينا:

ولا يفوتنا في هذا المجال ذكر الشيخ الرئيس ابن سينا صاحب أكبر موسوعة فلسفية في الإسلام وهي كتاب الشفاء، وعلى الرغم من تضلعه في هذا العلم إلا أنه مس الأخلاق مسا خفيفا في رسالته (في علم الأخلاق)، وكان غرضه منها معرفة الفضائل والرذائل حتى يتسنى للمرء اكتساب الأولى واجتناب الثانية، فيوفي بذلك إنسانيته حقها من الكمال. وله قصيدة مشهورة في النفس مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهي الّتي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربّما ... كرهت فراقك وهي ذات تفجّع
أنفت وما سكنت فلّما واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
فأظنها نسيت عهوداً بالحمى ... ومنازل بفراقها لم تقنع

(عيون الأنباء في طبقات الأطباء).

الغزالي:

أما الفيلسوف الذي ترك أثرا بارزا وقويا لا يزال تأثيره حتى الآن فهو أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ)، وتأتي أهمية هذا الفيلسوف المسلم من خلال محاولته التوفيق بين الفلسفة اليونانية، والعناصر الصوفية، والعناصر الدينية، ومما زاد في عمق نظرته أنه كان متصوفا وعالما بالدين وله باع في علوم الفلسفة اليونانية فجاء نتاجه الفلسفي مختلفا ومتميزا عمن سبقه، وتظهر هذه الفلسفة واضحة جلية في كتابه "ميزان العمل" وبدرجة أقل في كتابه المشهور (إحياء علوم الدين) وله أيضا (تهافت الفلاسفة) و(تهافت التهافت).

ومما يدلل على عبقرية هذا الفيلسوف العالم الزاهد مقدرته الفائقة في الاستنتاج والمزج بين الثقافات المختلفة التي ذكرناها، فعندما يتحدث عن قوى النفس الثلاث والفضائل المقترنة بها وهي: القوة الناطقة، وفضيلتها الحكمة، والقوة الغضبية وفضيلتها الشجاعة، والقوة الشهوانية

وفضيلتها العفة، يجد الغزالي أن لهذه القوى والفضائل نظائر في القرآن الكريم الذي أتى على ذكر قوى النفس كما يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الحجرات15. فدل الكتاب بالإيمان عنده على العلم اليقيني، وهو فضيلة القوة الناطقة، وبالمجاهدة بالأموال على العفة والجود التابعين للقوة الشهوانية، وبالمجاهدة بأنفسهم على الشجاعة والحلم وهما فضيلتا الحمية (أو القوة الغضبية كما دعاها ابن سينا وأفلاطون). (فخري، 1979، ج2، ص: 153، نقلا عن ميزان العمل، 1324 هـ ، ص 44).

أما فيما يتعلق بالجانب الصوفي فقد تطرق إليه في الفصول الأخيرة من ميزان العمل التي تدور حول منازل السائرين إلى الله تعالى، والعلامات الدالة على صدق هؤلاء السائرين، وعلى حقيقة القرب من الله تعالى الذي أوجزه الحديث القدسي وهو: "لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا، فبي يسمع، وبي يبصر". (المصدر السابق، ص: 154).

وفي الحقيقة إذا تحدثنا عن علاقة الأدب بالفلسفة والأخلاق نجد هذه العلاقة أعمق ما تتمثل في الأدب الصوفي، فقد تأثر تأثرا بالغا بالفلسفة اليونانية، ومزج بينها وبين تعاليم الإسلام، وقد غالى بعض الشعراء في ذلك مغالاة شديدة، حتى قال الحلاج: "ما في الجبة إلا الله". وأعدم، بسبب مواقفه التي فسرت على غير ما يقصد، حيث فسر قوله على أنه ما في الجبة إلا ذكر الله، وكذلك غالى ابن الفارض في قوله:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

ولم يسلم من تأثير تلك الفلسفات والمبادئ حتى العامة الذين ضلوا ضلالا بعيدا، وذهبوا شططا، واختلطت أمور الفلسفة بالدين، وكثرة المتعرضين لذلك، ولا يزال الأدب الصوفي بأشكاله وألوانه سائدا حتى اليوم تحت مسميات مختلفة في الشرق والغرب، وأصبح مصطلح "صوفي" يدل دلالات نقدية مختلفة عما كان يعنيه في السابق، وأصبحت تطلق على شعراء غربيين وعرب معاصرين واستشرى الغموض في الشعر العربي المعاصر.

ومن الأمور التي أثرت بها الفلسفات الأخلاقية على الأدب العربي ولكن بدرجة أقل من تأثيرها على المتصوفة، ونعني بذلك شيوع شعر الزهد الذي كان رائده أبو العتاهية، وكل من تاب بعد أن بلغ من الكبر عتيا كأبي نواس... وأصبحت هذه الظاهرة ملاذا للشعراء الذين اشتهروا بالمجون والتهتك، وبخاصة عند شعورهم بدنو الأجل.

ولم يسلم الشعراء المشهورون كأبي تمام، ومسلم بن الوليد والمتنبي وأبي العلاء المعري من تأثير تلك الفلسفات، بل ظهرت تلك النزعات في شعرهم واضحة جلية، حتى حد المبالغات

الشديدة وغير المفهومة، حتى أصبح الشعر يحتاج إلى إعمال الفكر لفهم معانيه ومراميه الأخلاقية حتى قيل لأبي تمام: لم لا تقول ما يفهم؟ فأجاب السائل: ولم لم تفهم ما يقال؟ ويكفي ما لهذا العبارة من دلالات على غموض الشعر ودقة معانيه ونقصد هنا الفلسفية، فأصبحت ترى في شعر المتنبي:

أحـــاد في خمـــاس في ســـداس لييلتنـــا المنوطـــة بالتنـــاد

أما عن شعر أبي العلاء فحدث ولا حرج، حيث اصطبغ شعره بالصبغة الرواقية والأفلاطونية المحضة حتى أطلق عليه فيلسوف الشعراء.

وخلاصة القول: إن الشعر والأدب بعامة ليس بمعزل عن تطور الفكر الإنساني الفلسفي والاجتماعي والثقافي والفلسفي، بل هو مساير له، ومواكب لتطوره، فالشعراء فلاسفة في ذات الوقت، وقد تأثروا بتلك الثقافات، واستشهد الفلاسفة بشعرهم بالمقابل، على إثبات كثير من آرائهم ومواقفهم، إضافة إلى أن أغلبهم سواء من الفلاسفة أم الشعراء كانوا على دراية تامة بما يجري في الساحة الثقافية، والشاعر من أكثر الناس ثقافة وعمقا، وأغلب الفلاسفة كانوا شعراء، ولهم باع طويل في الشعر ونظموا به القصائد، فابن سينا على سبيل المثال وكما ذكرنا كتب قصيدته المشهورة في النفس التي عدت من الفرائد والخرائد في الشعر العربي، وقد عارضها كثير من الشعراء كشوقي برائعته:

ردى قناعـــك يـــا ســـعاد أو ارفعـــي هـــذي المحاســـن مـــا خلقـــن لبرقـــع

وإيليا أبو ماضي في قصيدة فلسفية بعنوان "العنقاء" تتحدث عن النفس، ومطلعها:

أنـــا لســـت بالحســـناء أول مولـــع هـــي مطمـــع الـــدنيا كمـــا هـــي مطمـــع

(أبو ماضي، الديوان، ص: 492)

ولا نريد أن ندلل على عمق التأثير المتبادل بين الفلسفة الأخلاقية والأدب فقط، وكيف استطاع الفلاسفة المسلمون من ربط الفلسفة بالأدب، بل عدوا الفلسفة من صميم تكوين الشاعر والأديب والناقد، وإذا رجعنا إلى كتبنا النقدية كالوساطة للجرجاني، وأخبار أبي تمام للصولي تجد تلك النزعة في كتاباتهم واضحة جلية، وتظهر مدى ما كان يتحلى به الناقد عند تناوله لشعر الشاعر من ثقافة فلسفية وأخلاقية أصيلة.

مراجع البحث:

- ابن حزم، علي بن أحمد. (1961). الأخلاق والسير، بيروت.
- ابن المقفع، عبد الله (1989). آثار ابن المقفع، دار الكتب العلمية. بيروت.

- أبو ماضي، إيليا، (د ت). الديوان، دار العودة بيروت
- جميل بن معمر (1967). ديوان جميل، تحقيق حسين نصار (ط2) مكتبة مصر، القاهرة.
- صابر، نجوى (1990). النقد الأخلاقي أصوله وتطبيقاته، دار العلوم العربية، بيروت: لبنان..
- غالب، مصطفى (1979). أفلاطون، دار مكتبة الهلال، بيروت.
- فخري، حامد (1978). الفكر الأخلاقي العربي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت
- مسكويه، أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي (د. ت). تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- المعوش، سالم (2004). عبد الله بن المقفع، مؤسسة بحسون، بيروت:لبنان